مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 23 العدد: 4 السّنة: الثّلاثيّ الثّالث 2021 ص 65 - 74

اللسانيّات
في كتاب "مفتاح العلوم" للسّكاكي بين التنظير والتأصيل

Linguisties in the book “key of science” by Al-sakaki between the orizing and referencing

د. كلتوم حسروف*

تاريخ الاستلام: 16- 06- 2019 تاريخ القبول: 26- 04- 2020

التعريف الرقمي للمقال: doi 10.33705/0114-023-004-004

ملخّص: سنحاول استقراء مدوّنة من مدونات التّراث في علوم البلاغة حيث سنعرج على تعريف سراج الدّين أبي يعقوب السّكاكي (ت 626هـ)،ثم نعطي بطاقة قراءة لكتاب "مفتاح العلوم"، ونبدأ في بيان غرض السّكاكي من وراء جمعه لعدّة علوم في هذا الكتاب حيث ذكر معلومات صوتيّة في المقدّمة، ثم جعل القسم الأوّل لعلم الصّرف، والقسم الثّاني لعلم النّحو، والقسم الثّالثّ لعلمي المعاني والبيان ليذيل في الأخير بعلم المنطق والجدل ثم العروض والقوافي، ويمكن تفسير ترتيب السّكاكي لهذه العلوم في كتابه تفسيرًا لسانيا، لأنّه يدرك أنّ هناك رابطة وثيقة بين هذه الفروع التي تعتبر فروع علم اللغة، وهناك من المحدثين من يعدّ السّكاكي صاحب مدرسة لسانيّة سماها "اللسانيات الشّموليّة" سأسلّط الضّوء على هذا الطّرح، لأختم ورقتي البحثيّة ببعض النّتائج.

الكلمات المفتاحيّة: اللسانيّات، السّكاكي.

*جامعة البليدة 2، الجزائر، البريد الإلكتروني: hsrwfkltwm@gmail.com (المؤلّف المرسل)

Abstract:I will try to extrapolate a blog from heritage blogs in the science of rhetoric ,So that I will define Seraje Eddin El-sakaki,then give a card reading to the book « key of science » . I begin to explain the purpose of El-sakaki behind his collection of several sciences in this book where he mentioned audio information in the introduction ,then make the first section of the science of exchange,and the second section of grammar, and the third section of the meanings of meaning and finally the science of logic and controversy and then presentations and rhymes.

We can interprete El-sakaki order to these sciences in this book as a linguistic interpretation because He realizes that there is a link between these branches of linguistic.

Som of modernists of the school of El-sakaki, a lin guist called Holistic linguistics,will highlight this thesis to conclude my research paper with some results.Key words :linguistics,El-sakaki.

لا يخف على أحد أنّ للمتقدمين ممارسات نصيّة نقلتها لنا ما وصلنا من مدوّنات تراثيّة سواء: نحويّة أم بلاغيّة أم نقديّة أم غيرها ولابد لنا من استقراء دقيق لهذه المدوّنات وقد اخترنا كتاب ''مفتاح العلوم'' لقراءته واكتشاف ابداع السّكاكي في هذا الكتاب فما هي البصمة التي تركها السّكاكي في ''مفتاح العلوم'' ممّا يقرُّ به الدّرس اللساني الحديث؟

أوّلا صاحب الكتاب هو أبو يعقوب سراج الدّين السّكاكي الخوارزمي (ت 626هـ) صاحب كتاب ''مفتاح العلوم'' الذي له شهرة كبيرة أشار إليها معاصره **ياقوت الحموي** في كتابه: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف باسم: (معجم الأدباء)بقوله: ''أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الرّكبان، صنف (مفتاح العلوم) في اثني عشر علماً أحسن فيه كل الإحسان...''، كما قدّم له ترجمة مختصرة له فقال: "يوسف ابن أبي بكر

بن محمّد، أبو يعقوب السّكاكي، من أهل خوارزم في أزبكستان حاليا، علامة إمام في العربيّة والمعاني والبيان والأدب والعروض والشّعر"[1]، طبع كتاب "مفتاح العلوم" طبعات عديدة أجلُها: نشرة أكرم عثمان يوسف ''جامعة بغداد 1981م'' نال بها الدّكتوراه، وقد اشتهر من الكتاب الجزء الثّالثّ على يد الجلال القزويني خطيب جامع دمشق: حيث لخّص الجزء الثّالثّ، وتصرف في بعض أبوابه، وأضاف إليه ما يحتاجه من الأمثلة والشّواهد، وأسقط الفصول التي ألحقها السّكاكي بالقسم الثّالثّ، وهي علم الجدل والاستدلال والعروض والقوافي ودفع المطاعن عن القرآن.

وموضوعنا هو الكتاب ككل بأقسامه الثّلاثة، لأنّ القزويني لما اهتم بالقسم الثّالثّ بترالعلاقة الموجودة بين فروع علم اللغة التي أقّرها السّكاكي في ''مفتاح العلوم'' يقول كمال بشر: ''فنلاحظ أنّ السّكاكي يدرك أنّ هناك رابطة وثيقة وعلاقة متينة بين هذه الفروع، وهو يشيرإلى ذلك أكثرمن مرّة، حيث يقرّر أنّ تمام هذه العلوم إنّما يعتمد على ربطها بعضها ببعض، فهو يذكر مثلا أنّ تمام الصّرف في دراسة الأصوات، وأنّ النّحو لا يستغني عن الصّرف أمّا بالنّسبة للنحو فقد قررنا أنّ النّحو أساس التّأليف في الكلام لمجرد الصّحة، وأنّ علم المعاني يرتبط به من حيث إنّه يبحث في الجملة كالنّحو، إن كان على مستوى الصّحة المجرّدة''[2]

يمكن تفسير ترتيب السّكاكي للعلوم في كتابه تفسيرا لسانيا، حيث بدأ في القسم الأوّل بعلم الصّرف ثم القسم الثّاني لعلم النّحو ثم القسم الثّالثّ لعلمي المعاني وذيل في الأخير بعلم المنطق والجدل ثم العروض والقوافي، أمّا عن المعلومات الصّوتيّة فقد ذكرها في المقدّمة وإذا وضعنا خطاطة مبدئيّة للكتاب فهي كما يلي:

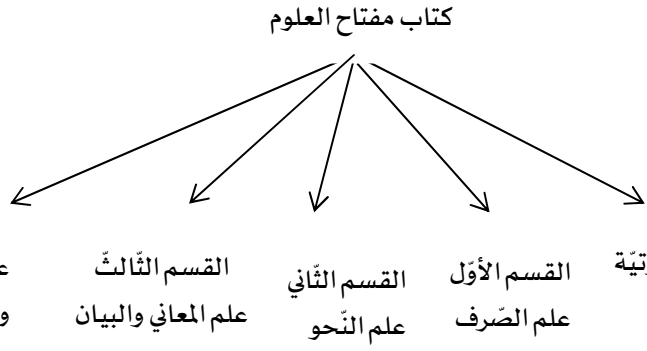

وباب النّظم وباب النّثروعلم العروض والقوافي والاعجاز ونلاحظ ترتيبه لهذه العلوم من البنيّة الصّغيرة وهي الصّوت ثم المفردة التي يدرسها علم الصّرف ثم الجملة التي يدرسها علم النّحو ثم البيان ودراسة مقتضى الحال ...الخ، وقد فسّر السّكاكي ترتيبه لهذه العلوم بهذا الشّكل بقوله: "وإنّما أغنت هذه لأنّ مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة المفرد والتّأليف وكون المركب مطابقا لما يجب أن يتكلّم له، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط على النّظم، فعلما الصّرف والنّحو يرجع إليهما في المفرد والتّأليف، ويرجع لعلمي المعاني والبيان في الأخير"[3] ويمكن تلخيص هذا النّص في الخطاطة التّاليّة:

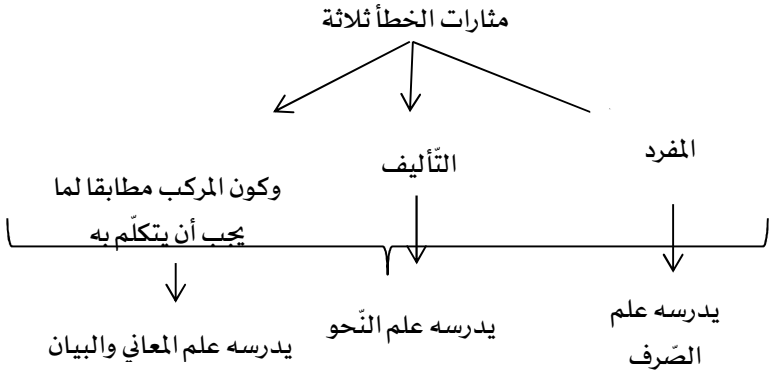

هذه الأنواع في علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك (أي الخطأ)

ثمّ يتطرّق لسبب هذا التّرتيب بقوله: " ولما كان علم الصّرف هو المرجوع إليه في المفرد هو في حكم المفرد والنّحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه وأنت تعلم أنّ المفرد متقدّم على أن يؤلّف وطباق المؤلّف للمعنى متأخّر عن نفس التّأليف لا جرم أنّا قدّمنا البعض على هذا الوجه وضعًا لنؤثّر ترتبا استحقه طبعًا"[4]، ومنه فإنّ السّكاكي كان واعيا بهذا التّرتيب، فقدّم ما حقه التّقديم وأخّر ما حقه التّأخير، للتسيير على طالب العلم وقارئ الكتاب الفهم والاستيعاب، وهذا ما يقرُّ به اللسانيون المحدثون فهذا **كمال بشر** يقول: "من المقرّر الآن في الدّرس اللغوي الحديث أنّ المستويات اللغويّة (أصوات

+ صرف + نحو...الخ) متشابهة متداخلة إلى درجة تحيل عزل بعضها كن بعض عزلا كاملاً عملاً غيردقيق، بل غيرمقبول من ثقات الدّارسين[5]. لذلك فهو يرى: ''ضرورة اعتماد كل فرع على الآخر وحتميّة الالتّجاء إلى نتائجه وخلاصة بحوثه للاستفادة منها في معالجة قضايا الفروع الأخرى وتوضيحها، فعلم الصّرف مثلا لا يمكن أن يستقل عن النّحو، وعلم النّحو في أشد الحاجة إلى ما يقرّره الأوّل ويسجله من حقائق، وكل منهما يلتمس العون من علم الأصوات من آن إلى آخره"[6]، وبجمع السّكاكي لهذه الفروع اللغويّة في كتاب واحد يسمّيه ''مفتاح العلوم'' وقد جعله أحد المحدثين صاحب مدرسة لسانيّة، وهو ''محمّد الصّغيربناني'' فيسميها (مدرسة السّكاكي في اللسانيات الشّموليّة) ويقول في ذلك: ''يطمح السّكاكي في مفتاحه إلى النّفاذ إلى جميع العلوم اللسانيّة والغيبيّة، فإن كان من اللسانيين القدماء من يستحق اسم رئيس مدرسة فهو السّكاكي نظرا لكثرة أتباعه وإقبال المنظرين على من تناولوا كتابه بالشّرح والتّطبيق[7]، ثم ينتقل الدّكتور إلى تصنيف **السّكاكي** للعلوم اللغويّة في شكل شجرة وسأنقل النّص كاملاً رغم طوله لفائدته: ''والتّطور يشمل أوّلا فرعين: النّحو والصّرف ثم يرتقي النّحو والصّرف إلى درجة البلاغة فيخلف علم المعاني "النّحو" وعلم البيان "الصّرف" ويخلف مقتضى-الحال في البلاغة مقتضى الوضع في النّحو بإدراج المنطق والاستدلال في العمليّة عمليّة التّحويل كما يدرج مع مقتضى الحال مقتضى المقام ومقتضى المقال، ويرتقي من البلاغة إلى علم الأسلوب في مستوى علم البديع فيخلف البيان المحسنات اللفظيّة والمعاني المحسنات المعنويّة، ولا يعرف العلماء عندنا حتى الآن أنّ انتقال السّكاكي من البيان إلى المعاني ليس شيئا آخر سوى انتقال من علم البلاغة إلى علم الأسلوب الذي أصبح علما قائما بذاته اليوم وجعل الكثيرمن الأدباء واللسانيين لا يميزون بين اللطائف الدّقيقة في البلاغة والأسلوب وجعلهم يعدّون الوجوه البديعيّة زبدا رابيا يذهب جفاء ولا ينفع النّاس. وقد أسهم بعض أصحاب البديع بتصنعهم وتكلفهم في تأكيد هذا الانطباع وبعد البديع يرتقي الكلام إلى مرتبة الشّعر مع العروض والقافيّة فالعروض يخلف التّراكيب النّحويّة والمعنويّة والقافيّة تخلف البيان وعند اكتمال هذه الطّبقات كلّها ينتقل الكلام إلى الأدبيّة...وليس فوق الأدب إلاّ الإعجاز القرآني[8]'' وهكذا ينقل لنا محمّد الصّغيربناني ارتقاء السّكاكي من علم إلى علم حتى يصل إلى الاعجاز، أمّا عن قوله أنّه صاحب مدرسة ''فعلى الباحث أنّ

يعقل أنّ الدّرس اللغوي العربي قد خضع إلى العناصر الأساسيّة التي تُكوّن أية مدرسة وهي:

- المبادئ وأسّس كل علم أو كل مستوى من مستويات اللغة؛
- والأعلام المؤسّسون لهذا العلم أو ذلك أو هذا المنهج أو ذاك؛
- والمكان أو البلد الذي تنشأ أو تترعرع فيه المدرسة.

ثمّ المنهج الاجرائي الذي تعالج به أو تحلل الظّاهرة: اللغويّة أو الأداء التّواصلي''[9] وإذا جئنا لعرض هذه الشّروط على مدرسة السّكاكي وجدنا أنّ له مبادئ وأسس قام عليها كل علم من العلوم التي تناولها، كما أنّه اعتمد على أعلام مؤسّسين لهذا العلم أو ذاك، فقد اعتمد بشكل أساسي في قسم النّحو مثلا على "المفصّل" للزمخشري و"الجمل" للجرجاني، وفي قسم البلاغة على أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ''ونهاية الإعجاز'' للرازي، "ودقائق السّحر" لرشيد الدّين الوطواط، وقد اعتمد على كتاب المفتاح أعلام كثر قاموا بشرحه وتلخيصه خاصّة الجزء الأخير من الكتاب، كما أنّه اعتمد على مصطلحات كانت موجودة قبله ومنهجه الاجرائي يصرح عنه الدّكتور عمار ساسي بقوله: '' إنّ منهج السّكاكي في المفتاح هو المنهج العلمي المتطوّر لمدرسة أبي علي الفارسي[10] اللغويّة،" وقد مكنه هذا المنهج من إدخال تطوير هام في التّأليف للسان العربي تجلى في علم الصّرف قبل علم النّحو''[11].

والسّؤال الذي يطرح نفسه: هل يمكن أن نعدّ السّكاكي صاحب مدرسة لسانيّة؟ أوّلا لابد من معرفة شروط قيام مدرسة أو ماذا نعني بهذه الكلمة أصلا، لقد كثر الحديث مؤخّرا عن هذا المصطلح، فألفت كتب موسومة به مثل: المدارس النّحويّة لخديجة الحديثي، والمدارس اللسانيّة لأحمد عزوز، والمدارس الصّوتيّة لعلاء جبر محمّد، والمدارس المعجميّة لصلاح رواي، ولكن -حسب اطلاعنا- لم يقدموا تعريفا جامعا مانعا لمصطلح ''مدرسة'' وشروطها. لكنّ **حلمي خليل** ينقل تعريف **أحمد مختار عمر** الذي أجده أكثر صحّة ودقّة حيث يقول: "إنّ مصطلح (مدرسة لغويّة)...يعني وجود نظريّة لغويّة مستقلة ذات أصول منهجيّة وفكريّة جديدة ينادي بها أحد العلماء ويلتف حوله عدد من الباحثين يؤمنون بهذه النّظريّة ويطبقونها ويعملون على تطويرها والدّفاع عنها واستمرار هذه النّظريّة ودوامها عبر السّنين شرط أساسي في تكوين المدرسة اللغويّة التي

لا يمكن أنّ تستحق هذا الاسم أو يعترف بوجودها بمجرّد وضع النّظريّة، وإنّما لابد أن تعيش ويكتب لها البقاء مدّة من الزّمن "[12]، وبهذا مبدئيا لا يمكن أن نسمي السّكاكي بأنّه صاحب مدرسة، لأنّه لم يأت بنظريّة مستقلة إنّما اعتمد على معلومات صوتيّة وصرفيّة ونحويّة سبقه إليها علماء العربيّة قبله، والجديد كان في الجزء الثّالث من المفتاح الكامن في تقسيم البلاغة إلى معاني وبيان وبديع، وقد خدم اللغة العربيّة بهذا الكتاب فلا يمكن انكار ذلك، أمّا موضوع المدرسة فيحتاج إلى بحث مستقل في مقال آخر نسأل الله التّسهيل.

فإذا عدنا إلى المفتاح نجد السّكاكي في الأصوات اكتفى بحسبانها المادة الخام لتأليف المفردات كما أنّه وضع رسما أوليا للجهاز النّطقي الإنساني وكان سباقا لهذا العمل باعتراف كثيرين يقول **علاء جبر محمّد**:" وإلى وقت قريب جدا كان الظّن السّائد أن الغربيين وعلماءهم هم الذين وضعوا هذه الاضافة المهمّة في هيكل الحقول المعرفيّة المتنوعة، ولا سيما الحقل اللساني منها. لكن الدّأب المخلص من دارسي العربيّة والمهتمين منهم بالتّراث... هو الذي كشف أنّ الذين أضافوا هذا الرّكن التّعريفي التّوضيحي هم العرب لا غيرهم...فقد كشف مخطوط من كتاب مفتاح العلوم للسّكاكي (ت 626هـ) أنّه أوّل من حاول وضع رسم أولي للجهاز النّطقي الإنساني "[13].

أمّا عن الصّرف فيقول السّكاكي: '' فأودعته (أي الكتاب) علم الصّرف بتمامه وإنّه لا يتم إلاّ بعلم الاشتقاق المتنوع على أنواعه الثّلاثة وقد كشفت عنها القناع''[14] ويرى ''كمال بشر'' أنّ السّكاكي ركز على نقاط تأتي في الدّرجة الثّانيّة من مباحث الصّرف الحقيقيّة... هذه النّقاط تتمثل في قضايا الاشتقاق بأنواعه[15]، ونحن لا نتقاطع مع رأي كمال بشر، لأنّ السّكاكي كان على وعي بحدود كل علم فقال: علم الصّرف وعلم الاشتقاق، بل يرى أنّ تمام علم الصّرف بعلم الاشتقاق، كما أنّ الدّكتور كمال بشر ينتصر للسانيات الغربيّة - حسب اطلاعنا- و'' التّصريف في نظر اللسانيات الغربيّة البنويّة (لا التّحويليّة التّفريعيّة) هو مجرد انتقال من عنصر لغوي إلى عنصر لغوي آخر الذي يحصل بسبب هذا الانتقال نفسه''[16].

''أمّا النّظرة العربيّة فهي... تراعي في نفس الوقت القرائن اللفظيّة التي تكتنف الوحدة وكل الوحدات التي يمكن أنّ يقع موقعها، وبذلك يتوصل إلى شيء مفيد جدا وهو

مفهوم المثال أو الحد، وهو بنيّة أو صيغة تندرج فيها عدة وحدات، وبذلك توصلوا إلى اثبات مستوى ''اللفظة''[17] وهي مصطلحات استخرجها الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح (رحمه الله) وعرّفها وركّز عليها. ممّا يغنينا عن تعريفها في هذا المقال.

هذه بعض الملاحظات اللسانيّة التي وجدناها في كتاب "مفتاح العلوم" وللحديث بقيّة في أبحاث أخرى إن شاء الله، وما نستنتجه أنّ مدونات التّراث تحمل لنا نظريّة لسانيّة متينة تضاهي أحدث النّظريات الغربيّة، ولا بد من تكاتف الجهود لدراسة هذه المدوّنات واستخراج كل المفاهيم والأفكار اللسانيّة وصياغة هذه النّظريّة، وهو عمل يحتاج إلى جهد ووقت وفريق عمل متكامل نسأل الله العزم والتّوفيق لخدمة اللغة العربيّة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو يعقوب السّكاكي، مفتاح العلوم، تحق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، ط1 1987

2- أحمد عزوز، المدارس اللسانيّة، دار التّنوير، الجزائر، 2014

3- التّواتي بن التّوالي، المدارس اللسانيّة في العصر الحديث ومناهجها في البحث دار الوعي، ط2، 2008

4- حلمي خليل: العربيّة وعلم اللغة البنوي دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، 1995.

5- علاء جبر محمّد، المدارس الصّوتيّة عند العرب النّشأة والتّطور، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان، 2006

6- عمار ساسي اللسان العربي، وقضايا العصر، دار المعارف، الجزائر

7- كمال بشر: التّفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب، القاهرة، مصر 2005

8- محمّد الصّغير بناني: المدارس اللسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة دار الحكمة، الجزائر، 2001

9- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحق: عمر فاروق الطّباع، مؤسسة المعارف بيروت، ط1 1420هـ-1999م

الهوامش:

1-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحق: عمر فاروق الطّباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1 1420هـ - 1999م،ج .

2-كمال بشر: التّفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار غريب، القاهرة، مصر، 2005، ص 298 و299.

3-السّكاكي: مفتاح العلوم، تحق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، ط1، 1987 ص4.

4-نفسه.

5-كمال بشر: التّفكير اللغوي بين القديم والجديد، ص285

6-نفس المرجع، ص286.

7-محمّد الصّغير بناني: المدارس اللسانيّة في التّراث العربي وفي الدّراسات الحديثة، دار الحكمة الجزائر، 2001، ص44.

8-نفس المرجع، ص42و 43.

9-أحمد عزوز: المدارس اللسانيّة أعلامها، ومبادئها ومناهج تحليلها للأداء التّواصلي، دار التّنوير الجزائر، 2014، ص80.

10-ينظر شرح وافي للمنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغويّة في كتاب الدّكتور عمار ساسي: اللسان العربي وقضايا العصر، ص 31-32-33-34.

11-عمار ساسي: اللسان العربي وقضايا العصر، دار المعارف، الجزائر، ص35.

12-حلمي خليل: العربيّة وعلم اللغة البنوي دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعيّة، اسكندريّة،1995، ص42.

13-علاء جبر محمّد، المدارس الصّوتيّة عند العرب النّشأة والتّطور، دار الكتب العلميّة بيروت لبنان 2006، ص185.

14-السّكاكي: مفتاح العلوم، ص3.

15-كمال بشر، التّفكير اللغوي بين القديم والجديد، ص 299 (بتصرف)

16-التّواتي بن التّوالي، المدارس اللسانيّة في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، ط2 2008، ص127.

17-نفس المرجع، نفس الصّفحة.